

الخطاب

■ الرئيس الحريري.
■ الحذر السويول،
■ ابراهيم المين

■ نائب الرئيس الحريري،
■ بيار ابي صعب

■ حيدر النور،
■ ميفيع قانوج

■ محاسن الحريري،
■ محمد زبيب

■ حسن عليف،
■ ايلى حنا

■ امه اللادري،
■ شريك كرم

■ صادرة عن شركة
■ اخبار بيروت

■ المكاتب بيروت -
■ فزاد - شارع دويك

■ سنتر كونكورد -
■ الطابق السادس

■ تليفاكس:
■ 01759500

■ 01759597

■ ص. ب- 5963/113

■ العيالات

■ الوكيل الحصري
■ ads@al-akhbar.com

■ 01759500

■ التوزيع
■ شركة الالوك

■ 01/666314-15
■ 03/828381

■ الموقع الإلكتروني

■ www.al-akhbar.com

■ صفحات التواصل

■

■ /AlakhtarNews

■

■ @AlakhtarNews

■

■ /alakhtarnews-

■ paper

نقد نظرية «نمط الإنتاج الكولونيالي»

أيّاف سلوم *

ثمة ضرورة لفتح نقاش بخصوص ديالكتيك نمط الإنتاج – التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية – التشكيلة الإنتاجية mode of production socioeonomic structure في بلد بعينه، سواء أكان متطوراً من الناحية الصناعية أم متخلفاً. وقد أسىء فهم علاقة نمط الإنتاج بالتشكيلة الاجتماعية الاقتصادية من جهتين:

الأولى، لجهة تصنيف المجتمعات بمعيار مزدوج؛ يعتمد على علاقات الإنتاج وقوى الإنتاج كليهما معاً، ما خلق لبلة في التصنيف وعموضاً، وهذا ما قام به إيف لاكوسنت عند حديثه عن ‘نمط الإنتاج الآسيوي’ في كتابه ‘جغرافية التخلف’،

أو تصنيف قائم على توصيف التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية، وهذا ما قام به المفكر الهندي جايروس باناجي Jairus Banaji في مقالته ‘النمط الكولونيالي للإنتاج’ (1972) The Colonial Mode of Production، ومن بعده مهدي عامل في كتابه الشهير ‘مقدمة نظرية – في نمط الإنتاج الكولونيالي’ (1975)، حيث يتم تصنيف نمط البنية الكولونيالية على أنه كولونيالي بناءً على مواصفات البنية. إنه بناءً على سمات ومواصفات الطبقة المالكة لوسائل الإنتاج في مجتمع بعد الاستعمار. هكذا يصح لدينا عدة أنماط إنتاجية في الرأسمالية: نمط رأسمالي تجاري، ونمط رأسمالي صناعي، ونمط رأسمالي مالي أو إمبريالي نصف إليه

رابعاً كولونيالياً في مجتمعات الهامش الرأسمالي بعد الاستعمار؛ ومع أن مهدي عامل يدعو إلى التدقيق في أدوات الفكر عند مقارنته الواقع، فهو لم يقدم أي تعريف أو نقد لمفهوم ‘نمط الإنتاج’.

لكن جميع هذه التسميات ما هي إلا مراحل في تاريخ توسع النمط الرأسمالي للإنتاج منذ ظهوره على المسرح الأوروبي الغربي، من رأسمال تجاري إلى رأسمال صناعي (1760- 1870) إلى رأسمال مالي (ماجودوف الإمبريالية 1978). وكان ماركس: ‘قد كان القرن الثامن عشر قرن التجارة، هذا ما يقوله بنتو بكل وضوح’ ‘الأيديولوجية البولتية’ (1845).

وهناك تصنيف ثالث برصد وجود عدة أنماط للإنتاج متزامنة في تشكيلة واحدة، لكن التصنيف هذا لا يأخذ باعتباره مسألة تطور هيمنة نمط مسيطر متفوق فيها، كدخول النمط الرأسمالي للمجتمعات الغربية من الشرق إلى قبل الاستعمار) بإلاسماك باهمية هذه العلاقة العالمية، فنستمر في النظر للاستشراقية في طرح أسئلة غير تغيرت جوهرها بعد تاسيس المراكز العالمية للرأسمالية الإمبريالية. تفشل النظرية الداخلية للتطور (الاستشراق الذي أكد على السمات الداخلية للمجتمعات الشرقية ما قبل الاستعمار) بإلاسماك باهمية هذه العلاقة العالمية، فنستمر في النظر للاستشراقية في طرح أسئلة غير تغيرت جوهرها بعد تاسيس المراكز العالمية للرأسمالية الإمبريالية. تفشل النظرية الداخلية للتطور (الاستشراق الذي يؤكد على السمات الداخلية للمجتمعات الشرقية ما قبل الاستعمار) بإلاسماك باهمية هذه العلاقة العالمية، فنستمر في النظر للاستشراقية في طرح أسئلة غير تغيرت جوهرها بعد تاسيس المراكز العالمية للرأسمالية الإمبريالية. تفشل النظرية الداخلية للتطور (الاستشراق الذي يؤكد على السمات الداخلية للمجتمعات الشرقية ما قبل الاستعمار) بإلاسماك

الثانية، لجهة إرجاع التخلف الذي تعانيه بلدان كثيرة في العالم بشكل أساسي إلى تأخر في تطور القوى المنتجة، وبالتالي يظهر الفارق بينه وبين التطور الصناعي قارقاً كماً فحسب، وكان لا شأن للطبيعة الطبقات المسيطرة في هذه البلدان بالأمر، ولا للسياسات الإمبريالية العسكرية والمالية والتجارية، والتي تشكل بشكل لافت عقبة خارجية تاريخية في وجه التقدم الاجتماعي والتطور الصناعي (في وجه التحديث). هذه النظرة مأخوذة بالعبء التقنوي في فهم التخلف والتقدم وهي تميل إلى تصنيف المجتمعات وفق درجة تطور القوى المنتجة، لا وفق شكل علاقات الإنتاج (لأنه ييسمطة بمكن تقديم هذا الفارق للاستغلال بين المرحلة التجارية

في مجتمعات الأطراف... بحيث تسقط كل الأقراضات عن الأهمية العالمية للمخارج الأوروبية للتطور (الثورة البورجوازية، والطبقة الوسطى الخ) على أساس هذه المناقشة للرأسمالية الطرفية. يصيف تيرنر ‘إن نمط الإنتاج هو وحدة معقدة لعلاقات الإنتاج وقوى الإنتاج، حيث تشكل علاقات الإنتاج العنصر المسيطر في تلك الوحدة’. إن تمييز باناجي بين علاقات الاستغلال الأوروبية، فثانة، عمل ماجور أو أجير) وبين التوسع العالمي لأوروبا الغربية ما بين 1760- 1870 في نواح عدة مهمة عن توسعية شركاء غير مساويين، حيث تطور الوحدة تخلف للأخرى (تيرنر، ‘ماركس ونهاية الاستشراق’، 1978) بمعنى أنه لا يمكن رصد تطور مجتمعات الأطراف الرأسمالية والبنية الكولونيالية بمعزل عن اقترانها وتبعيتها لنمو التطور في المراكز. أيضاً

هذا التطور غير متكافئ بين بنية الأطراف وبنية المراكز الإمبريالية، حيث ينمو التخلف هنا وينمو التطور الصناعي هناك (هنا قوى منتجة مختلفة. وهناك قوى منتجة متطورة في ترابط وتزامن). يقول بريان تيرنر: ‘لقد بنيت هجومي المضاد للصورة الاستشراقية للشرق الأوسط بان شروط التطور في الأطراف الرأسمالية تغيرت جوهرها بعد تاسيس المراكز العالمية للرأسمالية الإمبريالية. تفشل النظرية الداخلية للتطور (الاستشراق الذي أكد على السمات الداخلية للمجتمعات الشرقية ما قبل الاستعمار) بإلاسماك باهمية هذه العلاقة العالمية، فنستمر في النظر للاستشراقية في طرح أسئلة غير تغيرت جوهرها بعد تاسيس المراكز العالمية للرأسمالية الإمبريالية. تفشل النظرية الداخلية للتطور (الاستشراق الذي يؤكد على السمات الداخلية للمجتمعات الشرقية ما قبل الاستعمار) بإلاسماك

الدول المستعرة، كما في الماضي، أصبحت الدول الصناعية بائعة تحت بشكل متزايد عن أسواق لتصريف الحجم المتزايد من بضائعها التي تنتجها الآلات’ (ماجودوف: الإمبريالية) ويات نمط الإنتاج الرأسمالي مع هذا التحول مدمراً للأنماط السابقة له في مجتمع المستعمرات.

إن النظرة التي تتخذ من النمط والتشكيلة الاجتماعية الاقتصادية مرجعين للتصنيف تجهل العلاقة التي تحكم الجوهر بالمظهر أو العلاقة الإمبريالية بصورها وتمظهراتها، وبالتالي هي نظرة مأخوذة بالفلسفة الكانطية القديمة والجديدة التي تفصل الجوهر عن تمظهراته وتجلياته الفعلية فضلاً مكانيكياً، أي تجهل أن العلاقة الإمبريالية الرأسمالية تظهر في البلدان الرأسمالية المتقدمة تطوراً في القوى المنتجة، وفي البلدان المتخلفة متأخراً في هذه القوى. ويشكل التطور في الأولى سبباً رئيسياً للتأخر في الثانية بحكم علاقات الإنتاج الرأسمالية المسيطرة وعلاقات التبعية. إن العلاقة الكولونيالية تظهر كصور للتخلف الاجتماعي في الأطراف. إن العيب والطبقة الوسطى الخ) على أساس هذه المناقشة للرأسمالية الطرفية. عن ‘نمط إنتاج كولونيالي’ هو توصيف العلاقة الإمبريالية التي تتمظهر تخلفاً في هوامش النظام الرأسمالي على أنها ‘نمط إنتاج’ مختلف عن النمط الرأسمالي، تحكمه علاقات ملكية مختلفة (أي علاقات غير علاقات الملكية الرأسمالية الخاصة). وما الكولونيالية بالأساس سوى صورة العلاقة الإمبريالية بين المراكز الجيوبولية

”

التناقض بين تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج يأخذ طابعاً حاداً في أطراف النظام

“



نيكازموا (التب، اوكون - ا ف ب)

وعلاقات الإنتاج، حيث يظهر لديه نمط آسيوي نهري، وآخر تجاري. والأصح أن النمط الآسيوي يظهر عبر بنيتين، واحدة في أودية الأنهار الكبرى في مصر والرافدين، وأخرى في سهوب سوريا وشمال إفريقيا والحجاز والأناضول ومنغوليا.

ما من شك في وجود فروق مهمة وتاريخية بين التشكيلة الرأسمالية الكولونيالية من جهة، والتشكيلة في المراكز الإمبريالية. وقد رصد أدب التخلف بعد الحرب العالمية الثانية سمات البنية المتخلفة لجهة تلخع بنائها الاجتماعية الاقتصادية... ولجهة نبعيتها للمراكز الإمبريالية.

إن من يعتمد فكرة تطور القوى المنتجة كأداة لتصنيف المجتمعات المعاصرة وتحديد نمط إنتاجها يخرج بعشرات الأنماط المتنوعة. تصنيف نمط الإنتاج حسب علاقة الإنتاج الرأسمالية المسيطرة في مراكز النظام الرأسمالي وأطرافه يشير إلى قضية بالغة الأهمية، وهي أن التناقض بين تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج يأخذ طابعاً حاداً في أطراف النظام، وهو ما يسمى بتنعمية الجول المضادة في النظام الرأسمالي تجاه ميله أو قانون عمله الأساس وهو التناقض الذي يحكم عمله: التناقض بين تطور قوى الإنتاج وعلاقات الإنتاج السياسية والاجتماعية حول بناء الوطن إلى صراع ديني تضللي الإنتاج. فكلما وجدت قوى الإنتاج البيئية المناسبة للنمو في المراكز، سلكت درباً معاكساً في أطراف النظام الرأسمالي الإمبريالي ودفعت كتلة كبيرة من الطبقات الشعبية المفكرة نحو تحويل هذه العلاقة للإنتاج، أي دفعتها للمطالبة بتحويل الملكية الخاصة الرأسمالية لوسائل الإنتاج إلى ملكية عامة، نحو نمط اشتراكي ماركسي يلغى فيه كل تملك لوسائل الإنتاج.

إن دخول العلاقة الرأسمالية على تشكيلات خراجية/ جباية سابقة للرأسمالية في البلدان العربية عبر الاستعمار المباشر أسس لهذه العلاقة الكولونيالية، وكل محاولة من قبل أي بلد متخلف لتجاوز هذه العلاقة سوف تواجه بقمع إمبريالي شديد، ومثال إبان يعد ثورة 1979 حاضر ومعاصر.

لقد صنف ماركس في أبحاثه أنماط الإنتاج حسب علاقات الإنتاج السائدة أو المسيطرة في التشكيلة، فذكر النمط الآسيوي والقديم (الروماني - اليوناني) والجرماني والعبودي والإقطاعي والرأسمالي، وعلى أساس تحويل الأخير، الاشتراكي. وكانت أشكال الملكية أساس التصنيف. أما قوى الإنتاج، فتأتي لتتقلنا بتطورها وتراكمها من نمط إلى نمط. فكل علاقة لملكية تعيق تطور هذه القوى، فهي عرضة للتخطي والتحول نحو علاقة إنتاج تفصح المجال أكثر لتطور القوى المنتجة. بهذا الشكل، تشكل علاقات الإنتاج الرأسمالية أو علاقات الملكية الخاصة الرأسمالية لوسائل الإنتاج عقبة في وجه تطور قوى الإنتاج في أطراف النظام الرأسمالي الإمبريالي. وكلما تعمدت الأطراف على العلاقة الجبرية الرأسمالية، تحركت الطبقات الكادحة وبن الفئات الاجتماعية المبعدة عن الرفاه الرأسمالي في المراكز نفسها نحو الإحتجاج والتمرد.

أخيراً، يوجد تفسير جديس لطريف في البلدان المتخلفة التي يسود فيها الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، حيث يرجع أصحاب هذا الرأي (النظرة الاستشراقية) التخلف إلى وجود الإسلام والثقافة الإسلامية، وهذا ما سوف نسميه على سبيل الدعاية بـ‘الاقتصاد الثقافي الإسلامي’ للتحقق من هذا الرأي الضخاف، ولا يحمل أي قيمة في نقاش الاقتصاد السياسي للتخلف. لكنه يؤيد دوراً في تمظهرات العلاقة الكولونيالية، حيث تظهر الأخيرة على شكل نظام طائفي، مثال لبنان. لقد وافقت ثقافة الإسلام صود، الإمبراطورية العربية الإسلامية ورافقت انحطاطها ومعها سيطرة المغاليك والعثمانيين ورافقت الغزو الاستعماري الغربي للشرق الأوسط، فما علاقة ثقافة الإسلام بالتخلف؟ إن الكولونيالية كصورة للسيطرة الإمبريالية والتبعية والتخلف تعيد إنتاج أشكال قديمة ما قبل رأسمالية من الروابط الاجتماعية بشكل مشوه ورتّ. * كاتب وباحث سوري

ويسألونك عن الصادق المهدي! *

عبد العظيم سر الختم البشير **

لا نستطيع فهم مواقف الصادق السياسية والفكرية دون حفر معرفي يقودنا إلى الجذور الصادق ببساطة أسيراً! أسير سياسي وأسير تاريخي معرفي؛ وكل تاريخه السياسي عبارة عن مراوحة غير منتجة في مساحة محكمة تماماً بقبiod هذين الأسزين ولذلك هو في الحقيقة ضحية وظالم في آن واحد!

- في الجغرافيا التطبيقية ثمة ظاهرة معروفة تُسمى «الأسر النهري» تحدث من اشتباك نهر رافد يجري الهوبنا بارض منخفضة بجري نهر انحداري يجري في أرض أعلى، فيسبل الأول ماء، الثاني يأخذُه (يأسره) بمجره. من دلالة هذه الظاهرة وقياساً على مفاعيلها، عرفت علوم الاجتماع ظاهرة (الأسر) الثقافي، حيث تنتشر الحضارة الأقوى ولو كانت مهزومة عسكرياً على حضارة الغازي البربرية فتأسرها فيتمثل المنتصر البياني ثقافة المهزوم. (انظر كتابات المفكر والمؤرِّخ البريطاني أرنولد توينبي وغيرها). حالة الصادق المهدي تمثل ظاهرة نموذجية لحالة وقوع في الأسر والسلوك الأسير. سياسياً طاماً كان الصادق أسيراً لايتزاح حركة الإخوان المسلمين، ومعرفياً طاملاً كان (وسيطلّ حتماً) أسيراً للاكذوبة التاريخية المتعلّقة بحقيقة «مهدي» المهدي جدهُ.

ضخ الأسر السياسي الإخواني

إن المتتبع الحصيف للتاريخ السياسي للصادق سيكتشف خلف كل موقف من مواقفه انترزاً إخوانياً ما، ورُعباً مرضياً من استحواد إخواني وشيك على قواعد الحزبين الطائفيين الكبيرين «الأمة» و«الاتحادي». فمذ أن أفسد «الإخوان» الحركة الوطنية السودانية عادة الاستقلال بنجاحهم في جزّ السجلات السياسية والاجتماعية حول بناء الوطن إلى صراع ديني تضللي مفتعل حول «المستور الإسلامي» مروراً بتشرين الأول/ أكتوبر 64، ثم مسألة حل الحزب الشيوعي السوداني وطرد نوابه من البرلمان ومذمحة القضاء، وعصيان السلطة التنفيذية لقرار قضائي واجب التنفيذ، ما أدى إلى ضرب النظام الديمقراطي وإصابته بمقتل في أقدس أقداسه. بعدما وصف الصادق ما حدث ببساطة عجيبة بأنه «انفعال يمكن أن يتكرر!» ثم مروراً بالطلب الأول لثورة آذار/ مارس 85 المتعلّق في إلغاء قوانين أيلول/سبتمبر والتي وصفها الصادق نفسه بأنها «لا تساوي الحبر الذي كتبت به»، لكنه تحت ضغط «الإخوان» و«بنزراهم وخوفه التاريخي الزمن من استحوادهم على قاعدته (الدينية) أبقى عليها برغم متّع حكومته بأغلبية برلمانية، وراي عام خارج البرلمان يكاد يجمع على أن إلغاء قوانين أيلول/ سبتمبر كان شرطاً جوهرياً لإمكانية بناء دولة المواطنة التي بشرت بها ثورة آذار/ مارس - نيسان/ أبريل 85. ثم كانت الطامة الكبرى في موقفه من اتفاقية الميرغني فرقن الذي أدى لإجهاضها وكلّ ما خلفه هنا الإجهاض من كوارث أوصلتنا في النهاية إلى انقلاب حزيران/ يونيو وانفصال الجنوب. استمرّ

”

ازمة الصادق انه يعرف انه عرفه ان عرشه من سقطت وان حقيقة مهديا المهدي قد سقطت

“

تردّد الصادق بين ما يقوله وبين ما يخشاه من استحواد الكيزان يشكل كلّ موقفه من النشاط المعارض وعلاته بكل أشكال التحالفات المعارضة طوال حقبتَي الإنقاذ والإمار - مايو. أول وطيلة مسار ثورة كانون الأول/ ديسمبر المجيدة لم ينفك الصادق عن ضلاله القديم وواقع الأسر الذي يطوقه. فقد أراذ الصادق يوماً أسقاط نظام الإنقاذ بدون أن يُسقط حزب «الإخوان» وأراد دوماً يميزقراطية بأسنان ديكتاتورية!

لكن الأهم والأخطر في حقيقة شخصية الصادق أنه أخ مسلم، خرج فكره الديني والسياسي من ذات المعين وإن اختلفت العناوين والرايات. هذه الحقيقة هي التي جعلت الصادق يتماهى ويخضع للظاهرة الأسر الإخواني إلى هذا الحدّ الذي فاق تأثيره ما يُعرف بمتلازمة استوكهولم.

لكن الأهم والأخطر في حقيقة شخصية الصادق أنه أخ مسلم، خرج فكره الديني والسياسي من ذات المعين وإن اختلفت العناوين والرايات. هذه الحقيقة هي التي جعلت الصادق يتماهى ويخضع للظاهرة الأسر الإخواني إلى هذا الحدّ الذي فاق تأثيره ما يُعرف بمتلازمة استوكهولم. أخيراً، يوجد تفسير جديس لطريف في البلدان المتخلفة التي يسود فيها الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية، حيث يرجع أصحاب هذا الرأي (النظرة الاستشراقية) التخلف إلى وجود الإسلام والثقافة الإسلامية، وهذا ما سوف نسميه على سبيل الدعاية بـ‘الاقتصاد الثقافي الإسلامي’ للتحقق من هذا الرأي الضخاف، ولا يحمل أي قيمة في نقاش الاقتصاد السياسي للتخلف. لكنه يؤيد دوراً في تمظهرات العلاقة الكولونيالية، حيث تظهر الأخيرة على شكل نظام طائفي، مثال لبنان. لقد وافقت ثقافة الإسلام صود، الإمبراطورية العربية الإسلامية ورافقت انحطاطها ومعها سيطرة المغاليك والعثمانيين ورافقت الغزو الاستعماري الغربي للشرق الأوسط، فما علاقة ثقافة الإسلام بالتخلف؟ إن الكولونيالية كصورة للسيطرة الإمبريالية والتبعية والتخلف تعيد إنتاج أشكال قديمة ما قبل رأسمالية من الروابط الاجتماعية بشكل مشوه ورتّ. * كاتب وباحث سوري

13 الخطاب — الرصاص، 3 تموز 2019 العدد 3797 رابع

الثورة المهدي في سياقها التاريخي الإنساني والوطني الصحيح، كحركة تحرر وطني قادها بشر عاديين في ظروف تاريخية معينة وانطلقت من بيئة حضارية وثقافية واقتصادية محددة (غرب السودان)، فمخنتها هذه البيئة ملامحها العامة وفرضت توجهاتها في الإعلام والدعوة وفي طبيعة المنطلقات والأساليب والغايات، ثم ربطتها بأسماء، ففارت حقائق الأرض فراق الطريف لجمه، وكان طبيعياً أن تنتهي على يد الخليفة التعائشي باكتر مراحلنا التاريخية ظلاماً وتحشّراً ومفارقة كلّيّة للعقل والضمير ومسلماات الدين وحقائق الجغرافية والتاريخ.

السيد الصادق يتعمى بشكل قصدي ومنهج عن كلّ ذلك، وتواطأت مع هذا التعامى مناهجنا الدراسية وثقافتنا وأشعارنا وأغانينا، حتى بنتا جنزّت تاريخنا وتنبأهي به باستدعائه تلقائياً من أعمق مصادر الوعي الزائف بؤساً وظلامية. وحتى تغفّي شاعر نائر في أنصع لحظائنا الثورية العدائية «باسياف العشر» فطربنا بها واحتفينا دون أن يخطر ببال أي منا سؤال عن حقيقة «اسياف العشر»**»

فلماذا يصرّون على الإبقاء على الوعي الزائف ليتمدّ ظلامه إلى المستقبل؟ الإجابة ببساطة لأن هذا الوعي الزائف وحده، وأكثر وحده، هو الذي يمنح أسرة كاسرة المهدي كل هذه الهالة التي تصنع بها مجداً التالك في السياسة وفي الاقتصاد وفي الاجتماع.

أزمة الصادق المهدي الحقيقية وإشكاله الوجودي أنه يعرف أن عرشه من قش، وأن حقيقة مهديا المهدي قد سقطت. بل إنها كانت ساقطة منذ باينتها بكل مراكز الوعي القومي والشمال والوسط البتلي)، ويمكن للجميع مراجعة مراسلات المهدي مع شيوخ الطرق الصوفيّة والفقهأ، وإنكارهم لمهديته، وذلك كما كتب محمد أبو القاسم حاج حمد في سفره العظيم «السودان المازق التاريخي وأفاق المستقبل» كتب عن مبايعة الشمال والوسط البتلي للثائر محمد أحمد باعتبارها المهدي، المنتصر، وليس المهدي المنتظر!»

إنكار الصادق المهدي لاكذوبة المهدي هو «إنكار إلميسي» إنه إنكار الاستكبار لا جهل. تماماً كأنكار إلميس لتقديم الإنسي على الملائكي لأن الإنسان هو المخصّص دون خلق الله بالعقل والإرادة فاستحق تبعاً لذلك أن يتصف وحده دون سائر الخلق بمن فهم الملائكة بالحرية. لذلك عصى ربه استكباراً وليس جهلاً فرفض السجود لأدم برغم كونه أعلم الملائكة. هذا الإنكار المرضي القسري هو الذي ظلّ يطارد الصادق في كل حياته السياسية والفكرية حتى انطبعت بطابع الإنكار المرضي، فصار بهذه الحالة التي نراه عليها اليوم. رجل مجبر على العيش بكذبة، والكذبة المعرفية القسرية بالنسبة له، لأنه يستمد وجوده منها، يستجمل الكذب طابع حياته، فيبدو هكذا متردداً عند كل منعطف.

لا أمل إذن .. لا أمل أبداً في هذا الصادق برغم أن الهتاف المفضل لديه والذي يدغدغ مشاعره ويصحي أحلامه الفنية هو، ويا للمفارقة المنغلة، «الصادق أمل الأمة».

عند دراسة الفترة المهديا علينا أن نتجاوز المحرمات الغيبة والتمييز جيداً. بين رمزيتها الوطنية التي تشكل في الوجدان السوداني قيم البطولة والاستقلال والكرامة الوطنية، وبين القفاساة الزائفة التي تكزّس الوعي الزائف وتنتج ثقافة الخسوع والإذعان للطبقات المستغلات والتجان.

تنبئ الوثائق التاريخية ومراسلات المهدي أنه لم يعطن عن مهديته قبل عام 1881 ولم يعلنها إلا بعد التلقائ بالتعائشي والتعائشي كان مسكوناً بوهم المهدي ويبدو أن أسباباً ما تتعلق بتقديره الشخصي لذاته هي التي جعلته يعرضها على الغير، فعرضها أولاً على الزبير بلشا رحمة، لكنه ويخّه وبعده بالسيف إن عاد ملتها - ثم وجد الخليفة عبدالله ضالته في الإمام المهدي، وهنا ثمة حكاية تستحق أن تروى.

الإمام علي بن قبل قول حكيم بلغي في النفاق والمنافقين لعله أباح وأحكم وأجمع وأجمل ما قيل لفظاً ومعنى، يقول: «إنهم يتقارضون النناء، ويتراقبون الجزاء». ويشرحها الباحث حسن المالكى، «أن كل واحد يفتني على الآخر قرصاً ليثني عليه فضاء». وهذا بالضبط ما حدث في حكاية التواطؤ بين الخليفة والمهدي.

دخل الخليفة عبدالله التعائشي على مجلس المهدي، نظر إليه، ثم ارتجف جسده وارتج حتى خرّ مغشياً عليه؛ لأنه رأى في المهدي سرّاً وتجلياً روحياً لم يحتمله جسد فخرّ صعقاً! أدرك المهدي مضمون الرسالة، فالخليفة يقول إن المهدي شخص غير عادي، لكنه في ذات اللحظة يُثبت لنفسه درجة أقل من «غير العادي» هذه، لكنها كافية ليبصر في المهدي ما استخفي على الجميع، فإنّه هو أيضاً «فهي سر» وإن قل عن سر المهدي. الرجل إذن «أقرض» محمد

أحمد مقام المهدي فجازاه المهدي بمقام الخليفة؛ هذه ببساطة حقيقة مهديا المهدي التي استغلّت بها أسرة الصادق على رقاب الناس وسكوا بها ذمام

أمرهم. هي حقيقة الصادق المهدي التي أكرهها أو تزيفها ملايين الحقائق في تاريخها السياسي المعاصر (وقد يكون من بينها سر الموت المفاجئ للمهدي بعد فتح الخرطوم مباشرة وتولي الخليفة عبدالله بعده)، وهي الحقيقة التي لا يمكن لأحد تفسير شخصية الصادق معرفياً وسياسياً إلا من خلال الكشف عن محنة من بنى كل حياته السلطوية والمالية والفكرية وحتى الوجودية على (إنكار) حقيقة بديهية.

*** عنوان المقال مستوحى من عنوان كتاب للصادق المهدي**

«ويسألونك عن المهدي»

**** باحث وكاتب سوداني**

***** العشر: نبات طفيلي معروف في السودان وتمتاز سيقانه**

بدرجة عالية من العشابنة وتقول أسطورة المهديا إن سيقان

العشر هذه قد تحولت لسيوف في يد أنصاره وهم يقاتلون

المستعمر التركي